

## عدى بن زيد

نشأ عدىُّ في أسرة كريمة بالحيرة ، وكان أجداده أصدقاء لملوكها الذين أولوهم قتهم وعظفهم . وكان جده حماد أول من تعلم الكتابة ، وكتب للنعمان الأكبر . وقد توثقت صلته بمرزبان الحيرة فروخ ماهان ، حتى عهد إليه تربية ولده زيد من بعده ، وقد عمل المرزبان بوصية صديقه . وكان زيد الطفل يجيد العربية فوجهه المرزبان لدواسة الفارسية والتكلم بها ، ثم أوصى به خيراً عند كسرى ونصح بأن يجعله على البريد في حوائجهم ففعل ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة . وهلك النعمان ، واختلف أهل الحيرة فيمن يولى من بعده إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه ، فأشار المرزبان عليهم بزيد بن حماد ، فكان ملكاً على الحيرة إلى أن نصب كسرى المنذر بن ماء السماء .

ونشأ عدىُّ بن زيد طفلاً في الوقت الذي كان أبوه ملكاً فيه ، وكان رفيقاً لابن المرزبان ، يلعبان معاً ويتلقيان علوم الفارسية معاً في الكتاب الفارسي ، وأصبح عدى وشاهان مرد ، ابن المرزبان ، كأنهما أخوان . ولما قويت الصلة بين كسرى والمرزبان عمل هذا على إلحاق عدى بخدمة كسرى كما فعل بأبيه من قبل ، فهو ينتهز فرصة إنبات كسرى له ولولده في صحابته ، فيرجوه أن يلحق بأبنائه هذا الفتى العربي الذكي الذي تعلم الفارسية فأثقتها ، والذي يقول الشعر بالعربية . وكان عدى جميل الوجه - والفرس تتفاعل بالوجه الجميل - فلما كلمه كسرى وجده ظريف المحضر حاضر الجواب ، فأحبه وألحقه بديوانه ، فكان أول من كتب بالعربية في الديوان . وعلا شأن عدى عند كسرى فكان يؤذن له عليه في الخاصة .

وبينا عدى ينعم بما حظى به من عطف كسرى إذا بأعراب الحيرة يشورون على المنذر ، فإنه يعتدى على حقوقهم ، ويأخذ ما يريد منهم قسراً ، فهم يريدون خلعه ، وهو يحس بيقظهم له ، فيؤثر أن يتخلى عن عرشه ، وأن يعيش بقية

عمره في أمن وسلام . ولكن زيدا والد عدى يصلح ما بين الملك وشعبه، ويرضى العرب برأى زيد على أن يكون له الحكم وللمنذر الملك . وأخذ عدى يتردد على الحيرة بين الحين والحين . والناس يرون فيه الرأي الناضج ويحسون نفوذه القوي عند كسرى، فيعرضون عليه الملك ، ولكنه يأبى أن يكون ملكا؛ لأنه لا يحب حياة الحكام بل يريد أن يكون حرا طليقا ينعم بما ينعم به من نفوذ في بلاط كسرى ويحيا الحياة التي يحبها بين الفرس ، فإذا حن إلى بلاده استطاع أن يزورها متى شاء فيلتي من حب أهلها وتقديرهم له ما يدخل على نفسه السعادة والغبطة والبهجة الحقة بالحياة . ويشعر المنذر بما لعدى من مقام عند كسرى ، وما له من حب في نفوس العرب ، فيعمل على تقريبه منه ، ويتخذة صديقا ويعهد إليه بتربية ابنه النعمان .

وكان للمنذر غير ابنه النعمان أبناء كثيرون يسمون الأشاهب الجمالهم ، وأظهرهم الأسود الذي تربى في حجر بني مرينا . فلما احتضر المنذر أوصى بأبنائه إلى قبضة الطائي وملكه الحيرة إلى أن يرى كسرى رأيه . ويفكر هذا في أن يفض النظر عن هؤلاء الأمراء الصبية ، ويرغب في أن يولي على الحيرة أميراً فارسيًا . ولكن عدى بن زيد يزود عن العرب وهو في بلاد كسرى . إنه يذكر للمنذر أنه منع الأعراب من أن يأخذوا ما أعطوه لأبيه من جمال الديات . ويذكر قوله : « لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كان في يد زيد ثفروق وأنا أسمع الصوت . » ثم إنه يريد أن يحفظ للنعمان الذي تربى في حجره ولاية عرش أبيه وأجداده . ويسأل كسرى عديًا عن بقي من آل المنذر وهل بقي فيهم أحد فيه خير ؟ فيجيبه : « إن في ولد المنذر لبقية ، وفيهم كلهم خير » . فقال كسرى : « إبعث إليهم فأحضرهم ، فبعث فأحضرهم ثم أزلهم جميعاً عنده » .

ودعا عدى النعمان فوعده بأنه سيملكه الحيرة ، ولكنه سينتقص من قدره أمام إخوته وسيظهر لهم من المودة والاحترام ما لا يظهر له ، لأنه يريد أن يغترهم بذلك حتى يمكن له عند كسرى . وجمع الأشاهب فأوصاهم بالتأدب على المائدة . وقال : « إذا دعاكم كسرى للطعام فالبسوا من ثيابكم أحسنها ومن زينتكم أعلاها ، وتباطئوا في الأكل وصغروا اللقم وزروا ما تأكلون فإن الفرس قوم ذو مدينة وحضارة ، وهم لا يأكلون ما يأكل العرب ، إنهم يتذوقون الطعام تذوقا ولا يزدردونه ازدردادا » . قال : « وإذا سألكم كسرى ، اتكفونني العرب ؟ قولوا

إنا تقدر عليهم ولكن لا تقدر على أنفسنا ، حتى لا يطمع في أن يضرب بعضهم ببعض ، وحتى تظل مهاية العرب موفورة في نفوس الفرس . وخلا عدى بصاحبه النعمان فنصحه بأن يتجوع وأن يدخل غرفة الطعام في ملابس السفر ، وأن يسرع في المضغ والبلع ويكبر اللقم ويزيد في الأكل ، وألا يحفل بما حوله من مظاهر المدنية الفارسية المترفة . قال : « وإذا سألك : أتكفيني العرب ؟ قل نعم . فاذا قال وإخوتك ؟ فقل إذا عجزت عنهم فإني عن غيرهم لأعجز . ودخل الأشاهب على هرمزد ابن كسرى وقد تمهم إليه عدى بن زيد ، فأعجبه جاهلهم وحسن زيهم ، ولنت نظره هذا الأحمر الأبرش القصير الذي لا يحفل به عدى بن زيد كثيرا . ودخل هرمزد إلى غرفة الطعام ومعه الأشاهب فرآهم يأكلون كما يأكل أهل الحضرة يتباطئون ويتأثنون ، عدا هذا الأحمر الأبرش القصير فقد جلس إلى المائدة وكأ أنه في غيبه ، فهو يقبل على الطعام بشبهة فيقطع اللحم بيديه ويزدرده ازدرداً ولا يكاد يلتفت إلى شيء إلا لما يتهيأ للانقضاض عليه . ونظر كسرى فأطال النظر إلى هذا الفتى ، والتفت إلى من حوله وقال بالفارسية : « هذا أصلحهم للملك » . ورفع الطعام وأخذ كسرى يسألم فرداً فرداً عن العرب فيجيب كل منهم بما أملاه عليه عدى ، حتى إذا كان هذا الأحمر الأبرش القصير قال : « أ كفيك العرب وإخوتي جميعاً » . فقام كسرى وألبسه التاج ونودي به في البلاط ملكاً على الحيرة .

وعاد عدى مع صاحب الملك وعاد الأشاهب ومن بينهم الأسود ووليه عدى ابن مرينا . وأراد عدى بن زيد أن يصفو الجو للنعمان وأن يزيل ما بالنفوس من ضغائن وأن يتزع ما فيها من غل ، فدعا ابن مرينا وأصحابه إلى طعام في بيعة . وبعد الطعام قال له عدى بن زيد : « يا عدى إن أحق من عرف الحق ثم لم يلم عليه من كان مثلك ، وإني قد عرفت أن صاحبك الأسود كان أحب إليك أن يملك من صاحبي النعمان ، فلا تمنى على شيء كنت على مثله . وأنا أحب ألا تحقد على شيئاً لو قدرت عليه ركبته . وأنا أحب أن تعطيني من نفسك ما أعطيك من نفسي ؛ فإن نصيبي في هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك » . وقام إلى البيعة خلف الأيهجوه أبداً ولا يبعيه فائلة ولا يزوى عنه خيراً أبداً . فلما فرغ عدى بن زيد قام عدى بن مرينا خلف مثل يمينه ألا يزال يهجوهُ أبداً ويبغيه الغوائل ما بقى . وتوثقت الصلات بين عدى بن زيد والنعمان ، وكان هذا يستشره في أموره ويعمل برأيه . وقد بلغ من تأثير الملك بعدى أن ترك الوثنية واعتنق النصرانية

بفصيحته (١). ولكن عدياً لم يكن يطيل الإقامة في الحيرة؛ فهو من أصحاب كسرى الأقرين، وهو يؤثر البقاء في فارس حيث الترف الذي ألفه منذ صباه فينتهز ابن مرينا فرصة ابتعاد عدي بن زيد عن النعمان ليتقرب منه. وكانت السبيل إلى هذا التقرب ميسورة؛ فقد كان ابن مرينا غنياً وكان يستعين بأموال الأسود، فكان يبعث بالهدية تلو الهدية إلى النعمان ويتردد عليه ولا يترك مجلسه، فاتخذ النعمان منه صديقاً أميناً. ولما أحس ابن مرينا بتمكنه من النعمان أخذ يدس لعدي بن زيد، فصوره وقد استعلى على النعمان لأنه صاحب الفضل عليه. وأحس أهل مجلس النعمان بما لابن مرينا من منزلة وبما لقوله من أثر فكانوا يتملقونه بالموافقة على آرائه وتأكيده ما يصدره من أن عدياً لا يؤمن شره. ومهما تكن طبيعة الوسائل التي تذرعه بها ابن مرينا في الواقعة بين الصديقين فإنه نجح في السعي بينهما والإيقاع بعدي.

وبعث النعمان إلى عدي عند كسرى يدعوهُ لزيارة الحيرة فاستأذن فاذن له وما كاد يدخل الحيرة حتى أخذوه فألقوه في محبس لا يدخل عليه فيه أحد وأدرك عدي بن زيد أن خصمه ابن مرينا قد أفسد ما بينه وبين الملك. فكتب إلى النعمان يشكو إليه سعي أعدائه به، ويذكّره بما كان من أمر نصره له والأخذ بيده حتى علا العرش:

سعى الأعداء لا يألون شراً	على ورب مكة والصليب
أرادوا كي تمهل عن عدي	ليُسجن أو يُهدده في القلب
وكنت لزاز خصمك لم أعرد	وقد سلوكوك في اليوم الخصب
أعانهم وأبطن كل سر	كما بين اللحاء إلى العسيب
ففتت عليهم لما التقينا	بتاجك فوزة القدح الأريب

ثم شكوا ما لقي من الحبس والقيود ومصادرة الأموال، وقد أصبح بيته مقفراً إلا من زوجات أرامل هلكن من النحب:

أحطى كان سلسلةً وقيداً  
وغللاً والبيان لدى الطبيب

(١) تلخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني ص ٧٤.

أناك بأننى قد طال حبسنى  
 وبيتى مقفراً إلا نساء  
 ولم تسأم بمسجون حريب  
 أرامل قد هلكن من النجيب  
 كشنّ خانه خرزُ الريب  
 وما أترفوا عليه من الذنوب  
 يحاذرن الوشاة على عدى

ثم يستعطفه ويعتذر إليه عما قد بدر منه :

فإن أخطأتُ أو أوهمتُ امرأة  
 وإن أظلمتُ فقد حاقبتمونى  
 فقد بهم المصافى بالحبيب  
 وإن أظلمتُ فذلك من نصيبى

وأخيراً يقول له إنه سيندم عليه إذا افتقده فى الشدة فلم يجده :

وإن أهلك تجد فقدى وتخذل  
 إذا التقت العوالى فى الحروب

وكان كثير الضيق بهذه الأغلال التى شدوه بها . وقد زارته أمه فسأه أن  
 رأته وقد أوثقوه وهو ينصحها ألا تقترب منه وألا تحاول معاقبته، فإن المصنف  
 بالأغلال لا يروق له عناق :

ولقد ساءنى زيارة ذى قُر  
 ساءه ما بنا تبيّن فى الأي  
 بى حبيب لودنا مشتاق  
 دى وإشفاقها إلى الأعناق  
 فاذهبى يا أميم غير بعيد  
 لا يؤأتى العناق من فى الرواق  
 واذهبى يا أميم إن يشأ الله  
 به بنفسى من أزم هذا الخناق  
 أو تكن وجهة فتلك سبيل الذ  
 اس لا تمنع الختوف الرواق

ثم يخاطب إخوته طالبا منهم أن يغيثوه ويخلصوه من سجنه :

وتقول العداة أودى عدى  
 يا أبا مُمهر فأبلغ رسولا  
 وبنود قد أيقنوا بفلاق  
 إخوتى إن أتيت صحن العراق  
 أنى موتق شديد وثاقى  
 رس والمرء كل شىء يلاقى  
 وثياب منضحات خلاق  
 إن عيراً قد جهزت لانطلاق  
 فأركبوا فى الحرام فكثروا أخاكم

وأخذ عدى يرسل القصيدة تلو القصيدة للنعمان مستعطفاً ، والنعمان لا يابه له ، ويكتب الشعر لأعدائه ناصحاً تارة ، ومهدداً تارة أخرى فلا يلتفت إليه أحد منهم . وكان له أخ اسمه أبي كان قد ألحقه بديوان كسرى ، فكتب إليه شاكياً ما يلقاه من سجن وقيد . ورفع أبي أمر أخيه إلى كسرى فكتب إلى النعمان بأمره بإطلاقه . ولكن خليفة النعمان أرسل إليه بما كان من أمر كسرى ، ثم إن جماعة من خصوم عدى جاءوا يعدون إلى النعمان وحدثوه بأنهم رأوا رسول كسرى يدخل السجن ويقابل عدياً ، وأن الرسول في الطريق إليه ، فخشي النعمان إن ترك عدياً حياً أن يخرج من السجن فينتقم منه ، فأرسل إليه جماعة فغمّوه حتى مات . وجاء رسول كسرى فدخل على النعمان فأحسن وفادته وتلقى رسالته ثم أبلغه أن عدياً قد مات .

ولم يكذب ابن مرينا يتخلص من عدوه الأكبر عدى حتى أظهر النفور والبغض للنعمان ، فانه لم يكن يريد ملء على الحيرة ، وإنما كان يسعى للأسود . وأحس النعمان بما كان من حقد ابن مرينا على عدى والإيقاع به عنده ، فندم على ما كان من قتله ، وأخذ ولده زيدا فأحسن رعايته ، ثم بعث به إلى كسرى راجياً أن يكون خلفاً لأبيه .

وقبل ملك الفرس زيدا وولاه وظيفة أبيه . وكبر زيد وزادت منزلته عند كسرى ، وفي نفسه أن يكيد للنعمان انتقاماً لأبيه . وكانت الملوك العجم صفة من النماء مكتوبة عندهم ، وكانوا يبعثون إلى الأطراف في طلبها ، ولكنهم لم يفكروا في بلاد العرب لظنهم أنها خالية منها . ودخل زيد ذات يوم على كسرى فوجده يتحدث في ذلك القول ، فقال له : « إن عند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة » . وأراد أن يحكم انتقامه فحدث كسرى بأن شر شيء في العرب ، وفي النعمان خاصة ، أنهم يتكرمون عن العجم . والتبس من كسرى أن يذهب بنفسه إلى النعمان حتى لا يغيبن أو يعرض غيرهن ، فبعثه كسرى ومعه رسول من عنده . وأقبل زيد والرسول على النعمان فأبلغاه الرسالة . فقال : « أما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ؟ » فسأل الرسول زيدا : « ما المها والعين ؟ » فقال له بالفارسية : « كاوان أى البقر » . واعتذر النعمان عن تلبية طلب كسرى . فرجع زيد ومعه الرسول فحدثا الملك برفض النعمان ، وقال زيد : « إنى خبرتك يا مولاي بضعهم بنسأهم على

غيرهم وأن ذلك من شقائهم، وإنى أكرم الملك عن مشافهته بما قال». فسأل كسرى الرسول فقال: «إنه أجابنا بقوله أما كان في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا؟» فغضب كسرى ووقع في قلبه منه ما وقع، وقال: «رُبَّ عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم صار أمره إلى التباب».

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان، فأصبح في حيرة من أمره: أيحارب كسرى ذوداً عن الأعراض وهو لا يقوى على قتاله؟ أم يبعث بزوجاته وبناته وأخواته إليه، وهو ما يابأه الرجل الحر؟ واستجار برؤساء العرب فلم يُجِره أحد منهم فليس منهم إلا خائف من كسرى طامع في رضاه. فأودع أهله رئيساً من العرب، ثم سار إلى كسرى الذي بعث يطلبه.

وقابله زيد بن عدى على قنطرة ساباط فقال له: أُنحِ نعيم إن استطعت النجاء. قال: أفعلتها يا زيد! أما والله لئن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربي قط ولا لحقنك بأبيك.

قال زيد: إمض لشأنك نعيم، فقد والله أخيت لك أخية لا يقطعها المهر الأرن.

ولما بلغ كسرى أن النعمان بالبواب أمر بقيده وإلقائه في السجن، فظل به إلى أن لقي حتفه.

وهكذا انتقم زيد لأبيه الذي مهّد للنعمان بلوغ الملك، والذي قال له وهو سجين:

نحن كنا قد علمت قبلك محمد البيت وأوتاد الإصار

بجى الشاب